ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

الجدل الديني بين المسلمين والنصارى بالأندلس إلى نهاية القرن الهجري التاسع لمحة في ظروف التشكل، ومصوغات العناية

د. المختار شاكر
جامعة القرويين – المملكة المغربية

مقدمة:

إنَّ التحاور والجدال الديني بين معتنقي الديانات السماوية أو غيرها من النحل الأخرى، يعد بحق سمة من سمات الرقي الحضاري، ورمزاً من رموز القبول والاعتراف بالآخر، ووسيلة من وسائل تدبير الاختلاف معه، مهما كان دينه ومعتقده؛ بل هو العامل الأساس لتأسيس رؤية صحيحة عن هذا المخالف ومعتقدِه، والوقوف على عناصر الائتلاف والاختلاف معه، مما يسمح لكل طرف من أطراف هذا الجدال والتحاور بإصدار حكم صحيح عن الآخر؛ بعيداً عن الانزواء إلى الصور النمطية والجمود على الأحكام المسبقة عليه.

ولأجل هذا، انخرط المسلمون مبكراً في هذا التحاور والجدال الديني مع المخالفين لهم في الدين والمعتقد، كطريق للتعايش السلمي معهم من جهة، وكوسيلة للدفاع عن صحة الدين الإسلامي، والدعوة إليه بأسلوب قائم على الإقناع والاقتناع، وقرع الحجة بالحجة من جهة أخرى.

ولا شكَّ أنَّ عناية المسلمين بهذا الحقل العلمي واهتمامهم به، إنما تم بتوجيه من القرآن الكريم وبدعوة منه، فقد وردت فيه آياتٌ عديدة تدعو إلى الدخول في جدال أهل الأديان والملل الأخرى؛ من هذه الآيات قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة: العنكبوت، الآية: 46]. وقوله جل شأنُه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالتِي هِيَ أَحْسَن إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُو أَعْلَمُ بِالمُهتَدِين﴾ [سورة النحل، الآية: 125]، ولا يتم هذا الجدال مع الآخر بالحسنى، وإقامة تحاور علمي وجاد معه، إلا بالاعتراف به، وإعطائه الحق في إثبات الذات، وممارسة معتقداته والدفاع عنها بحرية تامة.

وانطلاقاً من هذه الآيات إذن، وغيرها، استلهم المسلمون منهجهم وطريقةَ جدالهم وتحاورهم مع المخالفين لهم، ذلك أنَّ القرآن الكريم يعد المؤسس الحقيقي لنظرية التعارف

والتحاور مع الآخرين، باعتبارهما وسيلتين لتوجيه وتدبير الاختلاف معهم، وخصوصا الاختلاف العقدي؛ نظريةٌ أقيمت على مجموعة من الأسس الكافلة لحقوق المخالفين، والضامنة لحرية معتقدهم، وأهم هذه الأسس ما بينه الله تعالى لنا بقوله ﴿**قلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [سورة: سبأ، الآية: 24]، فسوت هذه الآية في الاجتهاد في الوصول إلى الحق وتحري طلبه، مع احتمال ورود الخطأ والوقوع في الضلال من الجانبين، وتلك قمة في الاعتراف بالآخر، وضمانه حق الدفاع عن دينه ومعتقداته.

وقد تمثَّل المسلمون هذا المنهج وانخرطوا في تطبيقه، فشهدت مختلفُ الأقطار والمناطق التي تلاقى فيها المسلمون بغيرهم من الأمم الأخرى، محاوراتٍ وجدالات عقدية، أو ما يطلق عليه اليوم بـ"حوار الحضارات" أو "حوار الأديان"، وأبرز هذه المناطق؛ بلاد الأندلس؛ ذلك أن علماء هذا القطر، بفضل ما كان لهم من مقام رفيع في وسط المجتمع الأندلسي، تهيأت لهم الفرصة للتفاعل والاحتكاك بأتباع الديانات الأخرى المنتشرة في هذا البلد، وخصوصاً منها الديانة المسيحية، فكان من أهم مظاهر هذا التفاعل، ما تم بين علماء الديانتين من التحاور الديني والجدال العقدي. فما هي الظروف التي تشكل فيها هذا التحاور والجدل الديني بين أتباع الديانتين، وما هي مصوغات العناية به والاهتمام بقضاياه؟

أولا: ظروف تشكل الجدل الديني بين المسلمين والنصارى بالأندلس إلى نهاية القرن الهجري التاسع.

من المعلوم أن علماء النصارى بالأندلس مارسوا الجدل الديني في فترة مبكرة قبل دخول المسلمين إلى الأندلس؛ ذلك أن هذه المنطقة شهدت نشوءَ فكرٍ جدالي عقدي دارت رحاه بين المسيحيين واليهود من جهة، وبين المسيحيين التوحيديين والمسيحيين التثليثيين من جهة ثانية.

"فقد كان على المسيحية في بدء أمرها، أن تدافع عن نفسها اليهودَ أولاً. ولا يغيبنَّ عنا أنَّ الفكر الديني الذي سيصبح ديانة مسيحية، إنما هو في المنشأ فكر نحلةٍ يهودية. وأن أتباع عيسى الأوائل هم من يهود فلسطين ومن يهود الشتات. فلقد نشأت المسيحية من انشقاق حدث في

اليهودية في السنوات السبعين"[1]. كما وقع هناك جدال ديني داخل الديانة المسيحية نفسها، والمتمثل فيما نجم عن رفض الأريوسيين لقرارات مجمع نيقيا لعام (325م) القائلة بألوهية المسيح ، والذين لم يروا في عيسى عليه السلام أكثر من كونه بشراً ورسولاً[2].

ولما دخل الإسلام إلى الأندلس، عمل علماء النصارى بإشاعة و نشر فكرة مفادها أن الإسلام لا يعدو أن يكون صورة وامتداداً لهذا المذهب الأريوسي، وأخذ نصارى الأندلس يطلقون على المخالفين لهم في المعتقد من الأريوسيين لقب (مسلمون)، ويهدفون بذلك الاحتقار والسخرية منهم. ولعل هذا يكون سبب عزوف علماء النصرانية من الدخول مع العلماء المسلمين في جدل ديني حتى منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي[3].

فالكتب المهتمة بالجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس، لم تحمل لنا بطونُها أيَّ عمل في الرد على النصارى ينتمي إلى العقود الأولى لدخول الفاتحين المسلمين بلاد الأندلس، وذلك أن علماءهم لم يولوا اهتماما يذكر للجدل والمناظرات الدينية مع المخالفين لهم في الدين والمعتقد، والسبب في ذلك يرجع في نظر خالد السيوطي إلى كون الدولة في هذه الفترة كانت "مهتمة بتوطيد أركان الحكم، واستتباب الأمن الداخلي، وطبيعي في مثل هذه الفترات التاريخية يخفت صوت الجدل الديني. ويمكن أن يضاف لذلك عامل اللغة؛ حيث لم تكن اللغة العربية قد انتشرت بالقدر الكافي بين سكان البلاد الأصليين"[4].

لكن بعد مرور فترة من دخول الإسلام إلى الأندلس، واستقرت أوضاعهم هناك، أصبحوا يشكلون مع طوائفَ وأعراقٍ مختلفة أخرى، اللحمة الاجتماعية والثقافية والدينية التي ميزت المجتمع الأندلسي. وبفضل هذا التمازج الديني والثقافي، بدأ النصارى يكتشفون عقائد المسلمين

---

[1] ينظر مقال لإدغار فيبير Edgar WEBER، بعنوان: "في الجدل الديني في الأندلس والإبستومولوجيا الحديثة"، ترجمة: الصادق الميساوي، منشور بالمجلة العربية للثقافة، العدد السابع والعشرون، (مارس سبتمبر) سنة 1994، ص. 72.

[2] كتاب "الإسلام في الغرب (قرطبة عاصمة العالم والفكر)"، لروجيه غارودي، ترجمة : ذوقان قرقوط، جوهرة الشام، الطبعة الأولى، 1995، ص. 13.

[3] كتاب "الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس"، لخالد عبد الحليم السيوطي، دار قباء، القاهرة، 2001، ص. 75، بتصرف.

[4] الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس، ص. 73.

بأنها عكس ما روج له علماء النصارى من كونها مجرد هرطقة تهدد العقيدة التثليثية النصرانية ولابد من مقاومتها[1]، بل هي عقيدة تتفق مبادئُها مع العقل والمنطق[2]، فكان أن نجم عن ذلك اعتناق الكثير من نصارى الأندلس للدين الإسلامي.

ومن العوامل التي ساعد على هذا الأمر، هو العامل اللغوي؛ ذلك أن شيوع اللغة العربية بين النصارى وإقبالهم على تعلمها[3]، مكنهم من الاطلاع المباشر على الكتب والمؤلفات الإسلامية[4]، وبفضل هذا، أصبح نصارى الأندلس ينظرون إلى الفتح الإسلامي بأنه فتحُ خير على بلدهم الأندلس، بعد أن كانوا يتوجسون من الإسلام ومن معتقداته خيفةً.

وقد شهد بهذا الأمر عددٌ من علمائهم المنصفين، نذكر منهم على سبيل المثال الكاتب الإسباني بلاسكو إيبسانيز Blasco Ibanez الذي وصف هذه المرحلة بقوله: "في إسبانيا لم يأت الإحياء من الشمال، مع الجماعات البربرية؛ إنه جاء من الجنوب مع العرب الفاتحين(...) فتلك كانت حملة تمدينية أكثر منها فتحاً(...) دخلت بها إلى بلادنا تلك الثقافة الفتية، القوية، المستنفرة، بتطوراتها المذهلة بسرعتها، التي ما كادت تولَدُ حتى انتصرت، وتلك الحضارة التي خلقها حماسُ النبي، تمثلت أفضل ما في اليهودية والعلم البيزنطي(...).

ففي عامين استولى هؤلاء على ما انقضى سبع قرون لاسترداده منهم. فلم تكن غزوة تفرض بقوة السلاح. بل كانت مجتمعاً جديدا ينمي جذوره القوية في جميع الجهات. **كان مبدأ حرية العقيدة، الركن الأساسي الذي ترتكز إليه عظمة الأمم الحقيقية، غالياً عليهم. ففي المدن التي**

---

[1] رضوان السيد: "العلاقات الإسلامية المسيحية ثقافة الجدل وثقافة الحياة"، مقال نشر بمجلة "الاجتهاد"، العددان: السادس والعشرون والسابع والعشرون، السنة السابعة 1995، ص. 6.

[2] "الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس"، لخالد عبد الحليم السيوطي، مرجع سابق، ص. 74.

[3] يقول ألفارو أسقف قرطبة وهو يتأسف على إخوانه في الدين الذين انبهروا باللغة العربية ونسوا لغتهم اللاتينية: "إن إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، لا لتفنيدها بل لتعليم أسلوب عربي بليغ، وآسفاه إنني لا أجد اليوم عالماً يقبل على قراءة الكتب الدينية، والإنجيل بل أن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً أو أدباً ولا لغة إلا العربية، ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في نهم، ويجمعون منها مكتبات ضخمة، تكلفهم الأموال الطائلة، في الوقت الذي يحتقرون فيه الكتب المسيحية وينبذونها". خالد عبد الحليم السيوطي: "الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس"، مرجع سابق، ص. 74.

[4] ينظر كتاب "الإسلام والمسيحية"، لأليكسي جورافسكي، منشور بمجلة: "عالم المعرفة"، العدد 215، ص. 39، وما بعدها.

كانوا أسيادا فيها كانوا يقبلون بكنيسة المسيحي وبكنيس اليهودي،(...) فعلى حين كانت شعوب الشمال تبيد بعضها بعضا بحروب دينية وتسلك سلوك القبائل البربرية، كان سكان إسبانيا يرقون إلى أكثر من ثلاثين مليون نسمة، **وفي هذا الخضم من الناس يمتزج وتضطرب جميع الأجناس وجميع المعتقدات، بتنوع لا متناه ينجم عنه أشد النبضات الاجتماعية"**[1].

وقد تعددت مظاهرُ الحريات العقدية التي تحدث عنها بلاسكو هنا، حيث كان رجال الدين المسيحيين، على سبيل المثال، يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية، فالحكام المسلمون يسمحون لأساقفة النصارى بعقد مؤتمراتهم الدينية، أين ومتى أرادوا ذلك. كما تتجلى هذه الحريات أيضا "في كثرة الكنائس التي كانت منتشرة ما بين القرن الثامن والثاني عشر الميلاديين، سواء في المدن الكبرى أو الصغرى. ومن أشهر هذه الكنائس أيام الخلافة، الكنيسة العظمى بقرطبة Saint-Acisclo (...) وكان الأمير أحيانا يحضر الصلاة في الكنيسة، كما فعل أبو عامر بن شهيد، بل كان قرعُ النواقيس يبهج سمع أهل قرطبة على الرغم من تشدد الفقهاء في هذا الأمر ببلاد الإسلام"[2].

غير أن هذا لا يعني أنه لم تكن هناك بعضُ الانتكاسات عرفتها علاقات المسلمين مع النصارى بالأندلس في بعض حقبها التاريخية، وطالت الحريات الدينية وكذا العلمية والفكرية، إذ وصل الأمر في بعض الأحيان إلى هدم كنائس النصارى وأماكن عبادتهم. بيد أن ذلك، في نظر بعض الباحثين المتخصصين في الدراسات الأندلسية، لا يعدو أن يكون شذوذاً عن القاعدة، من بين هؤلاء الباحثين؛ أحمد شحلان، الذي ربط هدم الكنائس إما بوقائع خاصة ومعزولة "أو عندما تصبح الكنيسة معقلاً للثورة على السلطة (...)، ولو كان هدم الكنائس أمراً معتاداً، ما وجدنا فتاوى تفتي بمنع قرع النواقيس أو التخفيف منه، ولما أشار الونشريسي في معياره إلى التسامح في بناء الكنائس، والحظ على عدم تهديمها. وضل الحفاظ على الكنائس سنة متبعة"[3].

---

[1] عن كتاب "الإسلام في الغرب (قرطبة عاصمة العالم والفكر)"، لروجيه غارودي، مرجع سابق، ص. 17.

[2] "التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي التسامح الحق "، لأحمد شحلان، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2006، ص. 25 .

[3] نفسه، ص. 26.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

فاتخاذ الكنائس للأغراض العسكرية ضد المسلمين بالأندلس الذي أشار إليه أحمد شحلان هنا، كان أمراً معمولا به، فقد ذكر صاحبُ كتاب "**العلاقة بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية**" أن ملك أرغونة ردمير"حصل من البابا على الإذن بأن يستعمل في محاربة المسلمين دخلَ الكنائس الواقعةِ في مناطق كانت تابعة للمسلمين"[1]، وأضاف قائلا: "ومن تم يمكن اعتبار الكنيسة الإسبانية كنيسة لها وضعها الخاص، فهي كنيسة محاربة، تخدم في ميدان القتال، كما تخدم في ميدان الدعوة إلى المسيحية"[2].

لقد سلكت الكنيسة المسيحية بالأندلس هاتين الطرقتين المتمثلتين في النهج العسكري (حروب الاسترداد ومحاكم التفتيش) والنهج الدعوي (التبشير بالدين المسيحي)، كرد فعل لما حققه المسلمون من سمو ثقافي، ومن إقامة حياة فكرية وعلمية يؤطرها الفكر النير والحرية الدينية، مما جعل النصارى يستشعرون خطورة الإسلام على الدين المسيحي ومعتقداته؛ وخصوصا بعد أن تزايد عددُ المعتنقين من النصارى للإسلام؛ الدِّين الجديد الوافد على بلدهم، فانبرى العلماء النصارى لترجمة الكتب الإسلامية، بهدف الطعن في الإسلام، ومنها بطبيعة الحال، ترجمة القرآن الكريم، فظهرت أول ترجمة لاتينية لمعاني القرآن سنة 537هـ/1143م بقلم روبرت الكيتوني "Robert von Ketton" المستقر في مدينة طليطلة، غير أن هذه الترجمة لم يتم استغلالها "للتوصل إلى فهم أعمق وأدق للإسلام. وبدلا من استخدامها كوسيلة للتفاهم، استغلت (...) كمجرد ينبوع محبب للطعن في الإسلام على مدى قرون طويلة"[3].

كما ظهرت مؤلفاتٌ لعلماء نصارى تقدح في الدين الإسلامي، انصبت جهدُهم فيها بالأساس على تكرار واجترار مواضع من قبيل:

- أن محمداً نبي كاذب.
- أن القرآن لم يكن سوى كتاب منحول.

---

[1] كتاب "العلاقة بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف"، لرجب محمد عبد الحليم، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، بدون طبعة، ص. 327.

[2] نفسه، ص. 329 .

[3] ينظر مقال للمفكر الألماني هوبرت هير كومر بعنوان: "من تاريخ العلاقة بين المسلمين وأوروبا في القرون الوسطى"، ترجمة: ثابت عيد، منشور بمجلة "فكر ونقد"، العدد الخامس، يناير 1998، ص. 34.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

- أن الإسلام دين مزيف[1].

ولعل أهم شخصية لمثل هذا النوع من المؤلفات؛ التي تتصف بقذف للإسلام عقيدة وشريعة، وبسب لنبيه محمد ﷺ، هو بول ألبار "Paul Alvare"، الذي ألف كتبه بقرطبة سنة 850م، والتي يعتبر فيها نبي الإسلام محمدا ﷺ عدواً للمسيح ولدينه، كما كان يساند، وبشدة، ما يسمى بـ"حركة الشهداء"؛ وهي حركة أسست ضد المسلمين، وأغلب أعضائها من الرهبان. وقد تعددت وسائلهم للاستشهاد في سبيل نصرة الدين المسيحي، وانتقاما من الدين الإسلامي، فيكفي أن يقوم الاستشهادي بسب الإسلام ونبيه علناً في شوارع وأزقة قرطبة، حتى تقوم السلطات بإيقافه وإعدامه فيعتبر إذَّاك شهيدا[2].

كما لم يسلم أيضا الأندلسيون المسلمون، المعروفون بالمولدين، من تحريض علماء النصارى ضد دينهم الإسلام وإخوانهم المسلمين، وخصوصا في المراحل التي سبقت خروج المسلمين من الأندلس، خروج لخص لنا محمد شامة في كتاب "بين الإسلام والمسيحية" أو (مقامع الصلبان) أهم أسبابه بالقول: "ولكن الخلاف بين القبائل العربية، كان أخطر ما في هذا المجتمع، من عوامل التفكك والانحلال، فقد ظهرت عصبية القبائل والبطون من جديد، فتنافس الزعماء والقادة على السلطان والرياسة، فمزقت صفوفهم، ووهنت وحدة الدولة الإسلامية في الأندلس. وظل هذا هو المرض العضال الذي أعاق الدولة في كثير من الأحيان عن تأمين حدودها الشمالية، حيث تكونت المماليك النصرانية التي قادت عملية طرد المسلمين من الأندلس.

لعبت هذه الخلافات دورا رئيسيا في تولية الولاة، وقيام دولة بني أمية، وسقوطها، وقيام دول الطوائف، وأخيرا اشتدت وطأتها، فتهاوت الدولة أمام هجمات النصرانية في عام 897هـ=1492م"[3].

---

(1) «Polémique byzantin contre l'Islam», Adel Théodore Khoury, 2ème tirage, Leiden, E.J. BRIL, 1972, p:13.

(2) « Les sarrasins, L'islam dans l'imagination européenne au Moyen Age », Traduit de l'anglais par: Pierre Emmanuel Dauzat, AUBIER, p: 124.

(3) ينظر كتاب "بين الإسلام والمسيحية"، لأبي عبيدة الخزرجي، تحقيق: محمد شامة، مكتبة وهبة، ص. 15 و16.

وعن موضوع تحريض المسيحيين للمسلمين الأندلسيين عن دينهم الإسلام، يقول رجب محمد عبد الحليم: "فقد زرع النصارى من أهل الذمة الحقد في نفوس الإسبان المسلمين الذين يعرفون بالمولدين، وكانوا عونا لهم في إثارة القلاقل والفتن والثورات لمناهضة حكم المسلمين للبلاد، وقاموا بفتنة دينية طائفية في قرطبة أيام أمراء بني أمية، تعرف بحركة الاستشهاد المسيحية، لإثارة النصارى في كل مكان ضد مسلمي الأندلس، وكانوا دائمي الاتصال بممالك إسبانيا النصرانية وبالقرى النصرانية في البلاد الأخرى، لاستعدائها على مسلمي الأندلس"[1].

فلا يمكن لنا في مثل هذا الظروف، التي غلبت عليها أجواء حروب الاسترداد ومحاكم التفتيش، والتنصير القسري للمسلمين، أن نتصور إقامة جدال ديني بين المسلمين والنصارى، لغياب أبسط مقوماته، وهو احترام الحريات الدينية وحرية المعتقد، مادام أن" الدور الرئيسي لمحاكم دواوين التفتيش؛ هو المحافظة على وحدة العقيدة ضد كل البدع. وعلى ضوء ذلك فقد عمدت إلى تنظيم وحداتها ضد الموريسكيين، وهذا وفقاً لحركة تصاعدية بمطالبتهم باعتناق الدين المسيحي، ليصبحوا مسيحيين صادقين، وقد ظهرت هذه المحاكم في عدد كبير من الولايات؛ أين يقطن الموريسكييون، كرد فعل رسمي بعد المعارضة العنيفة في بعض الأحيان، والتي أظهرها الموريسكييون ضد الاعتناق القسري"[2].

وهذا ما أشار إليه صاحب كتاب "**الموريسكييون الأندلسيون والمسيحيون**" بقوله: "ولم تكن المواجهة الجدلية ممكنة أصلا بين المجموعتين في إسبانيا خلال القرن السادس عشر، فدواوين محاكم التفتيش كانت ترفض كلّ تسامح وحوار، ولم يبق للموريسكيين؛ كإجراء وقائي، إلا إخفاء معتقداتهم والدخول في جدل مستتر"[3].

وبهذا يمكن أن نفسر السبب الذي جعل أغلب علماء المسلمين بالأندلس؛ وخصوصا الواقعين منهم في الأسر، لا يؤلفون كتبا في الرد على النصارى إلا بعد رجوعهم إلى أوطانهم الأصلية،

---

[1] كتاب "العلاقة بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف"، لرجب محمد عبد الحليم، مرجع سابق، ص. 485.

[2] كتاب "الموركيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية"، للويس كارديك (Louis Cardillac)، ترجمه إلى العربية: عبد الجليل التميمي، مركز للدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، 1989، ص. 111.

[3] نفسه، ص. 90.

وتلك هي حالة محمد الأنصاري الأندلسي؛ وهو من أعلام القرن الهجري التاسع، حيث لم يؤلف رسالته "السائل والمجيب وروض نزهة الأريب" إلا بعد فراره من الأسر بالأندلس واستقراره بفاس[1].

غير أن هذا لا يعني غياباً كاملا للجدل الديني بين النصارى والمسلمين، ولمؤلفاته التي أفردها علماء الديانتين لهذا الغرض، بل دخل الطرفان في مناسبات عدة في تحاور علمي حضاري جاد، بعيداً عن الأجواء السياسية المشحونة، وهذا الأمر أشار إليه عبد المجيد الشرفي بالقول: "وتأكدت لدينا بذلك نتيجة أخرى لم نكن ننتظرها وهي أن الحروب الصليبية، مثل استرجاع النصارى الأندلس، عديمة التأثير أو تكاد في محتوى كتب الجدل الديني من الجانب المسيحي، وإن كانت دون شك، سببا مباشرا في تعددها ولاسيما في القرنين السادس والسابع للهجرة"[2]. وقد أفرز لنا هذا الجدال، رغم هذه الظروف، مؤلفات عديدة[3]، لازالت تحتاج إلى مزيد عناية والاهتمام، ويحسن بنا هنا أن نتحدث باقتضاب شديد، على أهم الخصائص المنهجية والأسلوبية للجدل الديني بين المسلم والمسيحي بالأندلس خلال الفترة المحددة لهذا البحث.

ثانيا: خصائص جدل المسلمين للنصارى بالأندلس وملامحه المنهجية.

يظهر من خلال ما رأيناه في الفقرات الماضية، أن العلاقات بين المسلمين والنصارى بالأندلس لم تستقر على حال، بل شهدت الكثير من التقلبات والتناقضات في مسارها، فتارة تجد أتباع الديانتين يندرجون ضمن تقليد التعايش والمثاقفة، وثارة أخرى يسيطر على علاقتهم تقليدُ بسطِ الهيمنة والسيطرة.

---

[1] ينظر عنه مثلا: كتاب "ورقات عن حضارة المرينيين"، لمحمد المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط (1996)، ص. 386. ومقال له أيضا بعنوان: "مناقشة أصول الديانات في المغرب الوسيط والحديث"، منشور بمجلة "البحث العلمي"، عدد: 13، السنة الخامسة، 1968، ص. 26.

وينظر أيضا: مقال للمستشرق الهولندي فان كونينكزفلد (Van KONINGSVLED) نشر بمجلة دفاتر الشمال، العدد: 5، 2002، عنونه بـ"الأسرى المسلمون في أوربا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة"، ص. 31.

[2] ينظر "الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/العاشر"، لعبد المجيد الشرفي، مرجع سابق، ص. 9.

[3] ينظر جرد مفيد لمجمل ما ألفه العلماء المسلمون في مجادلة أهل الكتاب، في مقال لخالد بن علي مفلاس بعنوان: "إنتاج ما صنفه المسلمون في مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى عبر القرون الأربعة عشرة"، نشر بمجلة "آفاق الثقافة والتراث"، العدد 70، سنة 2010، ص. من 6 إلى 30.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

والذي يهمنا هنا هو الحديث عن التقليد الأول؛ تقليد التعايش والمثاقفة، لكوننا إنما نبتغي في هذه السطور الوقوف على ما أنتجه العلماء المسلمون والنصارى بالأندلس ضمن هذا التقليد من تراث جدالي وعقدي، حري بنا أن نستحلي أهم خصائصه، ونتعرف على أبرز ملامحه المنهجية التي تميزه، أما التقليد الثاني -الذي غلبت عليه أجواء حروب الاسترداد، والتي أسفرت في القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، عن طرد آخر المسلمين من الأندلس- فلا يعنينا الحديث عنه في هذا المقام.

فمن أبرز الخصائص التي يمكن تسجيلها على التراث الجدلي بين المسلمين والنصارى بالأندلس، اعتماداً على ما ذكره عنه الباحثون، أن المجادل المسلم والنصراني لا يدخلان إلى المناظرة الدينية والجدل العقدي بنية تحصيل الحقيقة واقتسامها، وبهدف إظهار الحق والعمل بمقتضاه -وذلك بغض النظر علي يد من ظهر هذا الحق-، بل كلٌّ ما يهم الطرفين هو "إعادة إنتاج الحقيقة المحصلة عند كل منهما سلفاً، والدفاع عنها، ودحض حقيقة الآخر ورفضها وإقصائها"[1].

فحسن ظن المسلمين بالنصارى -إن وقع ذلك فعلا- وقبولهم الدخول معهم في المناظرة الدينية والجدال العقدي، "لم يكن يعني البتة التخلي عن العقيدة الإسلامية وعن الإيمان بأن الإسلام هو الدين الأمثل، وأن كتابه المعجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن نبيه قد بشرت به الكتب السابقة"[2].

وفي المقابل، فإن هؤلاء المسلمين حين يناظرون خصومهم النصارى، فإنهم يواجهون قوما، مرجعيتهم سنةٌ تعود إلى عدة قرون، قوماً قد اقتنعوا مع ذلك بأن دينهم أفضل وأصح من الأديان الأخرى، وحتى من اليهودية نفسِها التي آلت إلى جزيرات في الشتات"[3].

يقول فيبر "Weber": "علينا الإقرار بأن الجدال ما حوَّل أحداً عن دينه، بل إن الجدال، على عكس ذلك، ليقوي في الخصوم يقينا هم يفترضون(...) أنه منطلق مقدس"[4].

---

(1) ينظر مقال لمحمد عبد الواحد العسري في مجلة "التاريخ العربي"، العدد 15، 2000، بعنوان: "قواعد المناظرة وأخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي ومحمد الأنصاري للنصارى بالأندلس"، ص. 336، إحالة رقم: 28.

(2) "الفكر الإسلامي في الرد على النصارى"، لعبد المجيد الشرفي، مرجع سابق، ص. 570.

(3) ينظر مقال لفيبر WEBER : "في الجدل الديني في الأندلس والإبستومولوجيا الحديثة "، مرجع سابق، ص. 74، بتصرف.

(4) نفسه، ص. 73.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

إن الهدف الأسمى، إذن، من دخول المسلمين إلى تلك المناظرات، وقدحِ زِنَادِها، هو "حماية الذات الإسلامية وتحقيقها والدفاع عنها، وضمان استمرارها بين الجماعات الإسلامية في الأندلس المهددة بالتنصير"[1]. كما أن الجدال الذي تكون فيه المبادرةُ من النَّصارى، فهو بدوره إنما يندرج ضمن خطَّة التنصير "التي أملتها عليهم ظروفُهم التاريخية في هذا الباب. لذلك حاولوا الترويج للعقائد النصرانية، وخاصة عقيدة التثليث، بين الأقليات الإسلامية المدجنة والموريسكية بالأندلس وترسيخها بين أوساط هذه الفئات[2].

ومن خصائص هذا الجدال أيضا، أن علماء النصارى يتبوأون فيه - وخصوصا في المرحلة التي بدأت فيها الدولة الإسلامية بالأندلس في التقهقر- موقفا هجومياً، في حين يشعر فيه العالم المسلم بأنه في موقف دفاع، ولا بأس أن نتحدث عن الموقفين بنوع من التفصيل في هذه السطور:

فالموقف الهجومي الذي يستشعره النصارى في مجادلاتهم مع المسلمين، جعلهم ينوعون من أساليبهم ومن الأهداف التي يتوخونها من هذا الجدال، وأهم تلك الأهداف؛ دعوة المسلمين إلى الدين النصراني، وترويج عقائد هذا الدين بين صفوفهم، وقد سلكوا في ذلك طريقتين:

1- طريقة الدعوة الشفهية إلى الدِّين النصراني، حيث لا يتردد علماء النصارى في ممارسات العملية التنصيرية، ودعوة عامة المسلمين؛ بل وحتى علمائهم الذين تجمعهم بهم مجادلاتٌ ومناظرات في المدن الأندلسية، إلى ترك دينهم الإسلام، والدخول في النصرانية.

وفي هذا الصدد يحدثنا محمد عبد الواحد العسري عن أفضل النماذج من علماء النصارى الذين بذلوا جهدا أكبر في إنجاح مثل هذه المشاريع التنصيرية، ويتعلق الأمر هنا بـ"رمون لول"، يقول العسري: "ولقد نجح رمون لول في إنجاز أجزاءَ مهمة من هذا المشروع؛ فلقد تعلم العربية على يد مملوك مسلم، وبذل مجهوداً في تأسيس أول معهد للغات الشرقية، واستجابت مختلفُ السلطات المذكورة إلى دعواته المتكررة في هذا الشأن، فعملت على تأسيس معاهد وكراسي جامعية متعددة لتعليم هذه اللغات، **كما استجابت كذلك إلى رغباته في تنصير المسلمين، فيسرت له**

---

[1] ينظر مقال لمحمد عبد الواحد العسري بعنوان: "قواعد المناظرة وأخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي ومحمد الأنصاري للنصارى بالأندلس"، نفس المرجع، ص. 349.

[2] نفسه، ص. 346، إحالة رقم: 76، بتصرف.

إمكانية الدعوة إلى النصرانية بين صفوف هؤلاء بمساجدهم في الأندلس..."[1]. وقال عنه أيضا أليكسي جورافسكي: "وبفضل مبادرات المطران لول، افتتحت مجموعة من المدارس التبشيرية، التي اعتمدت برامج منظمة لتعليم اللغة العربية في عدد لا بأس به من الجامعات الأوروبية. ومن الوسائل التي كانت متبعة في مدارس اللغة للصبيان (بإشراف ريموند لول) **التدريب على الخطابة وأساليب الإقناع في الحوار، والسيطرة على الخصم في المناظرة**"[2].

2- طريقة تأليف الكتب وإشاعتها بين عامة المسلمين؛ وهذه الكتب غالبا ما تجعل من أعمال عبد المسيح الكندي ويوحنا الدمشقي -والتي قصد بها بالأساس تشويه صورة الإسلام ونبيه وأتباعه- الإطار المرجعيَّ لها.

فعن رسالة الكندي إلى عبد الله الهاشمي، يقول محمد عبد الواحد العسري: "لم تتبلور بالأندلس مناظرات جدلية دينية بين النصارى والمسلمين خلال الفترة نفسها التي ظهرت بالشرق الإسلامي. بيد أنه مجرد ما وصلت رسالة عبد المسيح الكندي إلى الأندلس، أخذ النصارى في إنتاج ردود ضد الإسلام على منوالها، ووفقا لمحتوياتها"[3].

وقال عنها أيضا في مقال آخر له: "هذه الرسالة قد ساهمت في تكون ذاك الأدب الذي جمع بين النصرانية والإسلام، وفي تأسيس خصائصه وأساليبه، ومناهجه وقواعده، وموضوعاته المفضلة. ناهيك عن أنها استطاعت (...) أن تضمن لنفسها صفة النص المدشن لتبلور أول تصورات النصرانية للإسلام وآليات بنائها بالغرب النصراني"[4].

وأما عن الشخصية الثانية؛ يوحنا الدمشقي وعن كتاباته الرامية إلى تشويه الإسلام، وأهمها كتاب<<نافورة المعرفة>>، يقول نور الدين أفاية: "يوحنا الدمشقي ساهم، بشكل تأسيسي،

---

[1] ينظر مقال لمحمد عبد الواحد العسري: "لقاء رمون لول بالإسلام والمسلمين في غرب البحر الأبيض المتوسط حوار أم مجادلة"، مجلة دفاتر الشمال، العدد الخامس، 2002، ص. 12.

[2] ينظر كتاب "الإسلام والمسيحية"، لأليكسي جورافسكي، مرجع سابق، ص. 78.

[3] ينظر مقال له أيضا: "قواعد المناظرة وأخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي ومحمد الأنصاري للنصارى بالأندلس"، نفس المرجع، ص. 334.

[4] ينظر مقال لمحمد عبد الواحد العسري، منشور بمجلة "الصورة"، العدد 3، 2001، بعنوان: "رسالة عبد المسيح الكندي إلى عبد الله الهاشمي: الغيرية الذاتية في المجادلة النصرانية للإسلام"، ص. 6.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

في رسم بعض ملامح المسلم، وذلك أنه حاول التشكيك بكون الإسلام دين إبراهيم الحنيف، من خلال وصفه المسلمين، على نحو لا يخلو من الخبث، بالسرازانيين (Saracens)[1]. ويبدو أن يوحنا الدمشقي هو أول كاتب بيزنطي استخدم هذا التشويه الإبتمولوجي لأغراض الجدل العنيف وتحفيز الذاكرة.

[فيوحنا الدمشقي] قد ساهم، بقسط وافر، في إثراء الجدل الكلامي بين الإسلام والمسيحية، وإضفاء نوع من "العقلنة" على نمط المناظرة الذي دار حول قضايا لاهوتية بين علماء الكلام المسلمين وعلماء اللاهوت المسيحيين"[2].

ولقد امتازت تلك الكتب بكون ظاهرها شرحاً للعقيدة النصرانية، وباطنها ضرباً للعقيدة الإسلامية، وتقويضَ أركان الإسلام، وتشكيك أتباعه في عقيدتهم، وسب نبيهم، وصرفهم عن الإسلام إلى النصرانية.

وخير من يصف لنا هذا الأمر هو أحمد بن عبد الصمد الخزرجي إذ يقول: "... ثم لم تزل لهم محافل يستدركون فيها على ما قدموا، وينشئون الكتب ويصنفون الدواوين في خلق الأكاذيب على سيد المرسلين محمد ﷺ، وشتم عرضه على نحو ما فعلوا بالخالق سبحانه وتعالى"[3].

وقد نهض الكثير من علماء المسلمين-وهم هنا في موقف دفاع- بمهمة التصدي لهذه الحملة المغرضة على دينهم، والرد على شبهات النصارى الرامية إلى تشويهه. فأُفردت لهذا الغرض (الرد على النصارى) "كتب أو رسائل مفردة والغرض منه في كلتا الحالتين دحض العقائد

---

[1] أو السارائين، نسبة إلى "سارة" زوجة النبي إبراهيم التي طردت هاجر أم إسماعيل وطفلها من منزلها بعد أن ولدت هي طفلها إسحاق، ويعتمد يوحنا الدمشقي في هذا التوصيف للمسلمين على قصة العهد القديم عن طرد سارة لهاجر، فيكون المعنى أن المسلمين هم المطرودين، أو هم أبناء المطرودين من البيت النبوي، هذا بالطبع لا يقوله يوحنا، لكن هذا الاسم سيظل دالا على المسلمين في التراث المسيحي لفترة طويلة. كلام لناصر حامد أبو زيد أورده في مقال بعنوان "الجدل اللاهوتي الإسلامي المسيحي في فترة التكوين الثقافي العربي، في القرنين السابع والثامن الميلاديين"، منشور في كتاب: "حوار الثقافات هل هو ممكن (أعمال ندوة)، وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، 2005، ص. 214، بتصرف.

[2] ينظر مقال له بعنوان "الإسلام في متخيل الغرب"، منشور بمجلة: "فكر ونقد"، العدد الخامس، يناير 1998، ص. 54، بتصرف.

[3] ينظر كتاب "مقامع الصلبان"، لأحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق: عبد المجيد الشرفي، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، ص. 93.

النصرانية، وكثيرا ما يكون موجها إلى المسلمين في الدرجة الأولى لتثبيت عقيدتهم وتحذيرهم من ضلال النصارى وتضليلهم، وإن احتوى على الدعوة إلى اعتناق الإسلام والعزوف عن النصرانية"[1].

فمن هنا يظهر أن من أهم الأسباب التي دفعت المسلمين إلى الدخول مع النصارى في المناظرات الدينية والجدال العقدي، هو الدفاع عن الإسلام وعقيدته، والرد على تلك المطاعن والشبهات التي لم يتوان علماء النصارى من إشاعتها بين المسلمين؛ سواء في كتاباتهم أو في مجادلاتهم.

وهذا السبب هو الذي جعل المستشرق الإسباني ميكيل دي إيبالثا يذهب إلى أن أخذ المبادرة للرد على المخالفين في الدين والمعتقد، يعد ظاهرة نادرة في الجدل الإسلامي المسيحي في الأندلس، ولذلك يلاحظ أن الأعمال التي كتبت في هذا الجانب عبارة عن ردود المسلمين عن دعاوى النصارى ضد الدين الإسلامي، مما جعل هذه الردود تتسم في أسلوبها بنوع من الغلظة والشدة وكثير من السباب والشتم للنصارى[2]. وخير مثال على هذه الظاهرة ما هو ما ثل في الباب الخامس والثلاثين من رسالة **السائل والمجيب وروض نزهة الأريب**[3].

وقد أفرز لنا هذا الجدال جملة من المقالات والردود على النصارى في هذه الفترة، وصف عبد المجيد الشرفي طريقة مؤلفيها، ومنهجهم فيها بالقول: "فكثير من الردود تبدأ بصفة فجئية ببسط سريع للنظريات اللاهوتية المسيحية تليه مباشرة محاولة دحض تلك المقالات سواء في منطوقها أو في مقتضياتها، بمناقشتها واحدة واحدة، وفي كل مرة تستخلص النتيجة نفسها: أنها فاسدة، متناقضة، مؤدية إلى الكفر والشرك. وينتهي الرد كما بدأ، عند الفراغ من مناقشة آخر حجة ينسب إلى النصارى التمسك بها، أو يفترض مجرد الافتراض أنهم قد يتشبثون بها"[4].

---

(1) "الفكر الإسلامي في الرد على النصارى"، لعبد المجيد الشرفي، مرجع سابق، ص. 22.

(2) M. de Epalza : « Arabica », Vol. XVIII, Fascicule: 1, février 1971, p: 10 .0

3- ينظر مقال لإحسان عباس منشور بمجلة "اللسان العربي"، العدد الرابع، 1966، بعنوان "رسالتان على غرار الغفران والتوابع والزوابع"، ص: 125.

(4) ينظر "الفكر الإسلامي في الرد على النصارى"، لعبد المجيد الشرفي، مرجع سابق، ص. 12.

أما عن أسلوبها والبراهين والحجج المستعملة والقضايا المطروقة فيها، فأجمل لنا محمد نجيب القول في ذلك- وخصوصا المؤلفات الموريسكية- فوصف هذه الردود بأنها "ضعيفة، وكثيرا ما يستند فيها المؤلف الموريسكي إلى براهين وحجج مستمدة لا من القرآن، بل من التوراة (الكتاب المقدس). وقد كان هذا الجدل الخفي يدور حول الثالوث المقدس، ورموز مريم العذراء ويسوع المسيح والكنيسة والبابوية والقربان المقدس وعزوبة الكهنة والراهبات التي اعتبرها المورسكييون نفاقا وخورا لأن الله أمر بالتناسل ولم يأمر بقطع حبل الحياة"[1].

فالمسائل التي عالجها العلماء المسلمون في كتاباتهم هاته، جاءت تبعا لما أثاره علماء النصارى على الإسلام من شبهات واعتراضات، فانصبت جهود هؤلاء العلماء في جدالاتهم للنصارى، لإفحام علماءهم من جهة، وإفهام عوامهم من جهة أخرى[2].

ولابد أن نشير هنا أن هذه القرون التي نتحدث عنها في هذه السطور(أي منذ بدايات هذا الجدل إلى نهاية القرن التاسع الهجري)، قد شهدت بعض الخفوت في الجدل الديني بين المسلمين والنصارى، وخاصة في شق التصنيف وتأليف الكتب الخاصة بالردود.

فالباحثون يؤكدون على غياب ملحوظ للمؤلفات في الجدل الديني بين المسلمين والنصارى بالأندلس في القرن الخامس الهجري مثلا[3]، بل منهم من رأى أن ما وصلنا من الكتب التي ألفت بعد هذا القرن في هذا الحقل العلمي، لا يعدو أن يكون اجترارا وتكرارا لما ألف في القرون الأربعة الأولى؛ لا من حيث المناهج المتبعة، ولا من حيث القضايا والمسائل المطروقة.

---

(1) من مقال "الأدب الألخمي والمورسكي"، لمحمد نجيب بن جميع، منشور بمجلة "دراسات أندلسية"، العدد 30، سنة 2003، ص. 30.

(2) ينظر كتاب "جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى"، لمحمد بن إبراهيم بن صالح أبا الخليل، دار أصداء المجتمع، الطبعة الأولى، 1998، ص. 423، بتصرف.

(3) M. De Epalza a dit : «Nous ne connaissons aucun texte de polémique (rudud) antérieur au XIe siècle (Ve de l'Hégire). Ceci ne veut pas dire que le les polémiques aient manqué en Espagne, comme d'ailleurs dans tous les pays où Chrétiens et Musulmans étais amenés à échanger des propos et des explications sur leur foi religieuse», « Notes pour une histoire des polémiques anti chrétiennes dans l'occident musulman », Arabica, Tome : XVIII, fascicule: 1, février 1971, P: 99.

يقول عبد المجيد الشرفي واصفا هذه المرحلة: "وهكذا أدت بنا مقارنة كتب الرد على النصارى إلى نتيجة لم نكن نتوقعها في البداية، وهي أن هذا الجدل قد اكتملت معالمه في نهاية القرن الرابع للهجرة، وأن الردود المؤلفة في القرون الموالية إنما كانت تردد ما كتب في القرون الأربعة الأولى ولاسيما في القرنين الثالث والرابع، ولم تزد في الغالب على التحليل ودعم الاستشهاد بالنصوص أو التعمق في اتجاهات سلكها الأقدمون. وكان تحقيقنا لكتاب "مقامع الصلبان" للخزرجي المتوفى في أواخر القرن السادس للهجرة مناسبة لممارسة هذا الجدل عن كثب، ومقارنة المواضيع المطروقة فيه بأمثالها عند سابقيه ولاحقيه"[1].

ثالثا: مصوغات العناية بالجدل الديني بين المسلمين والنصارى بالأندلس.

نخصص هذا العنصر للحديث عن بعض الجوانب التي رأينا أنها تُكسب الاعتناء بدراسة المناظرات الدينية والجدل العقدي، والذي دارت رحاه بالأندلس بين العلماء المسلمين ونظرائهم النصارى، قيمةً علمية، وتَبرز فيها أهميةُ العناية بمثل هذه الدراسات، لكونها تسمح لنا بـ:

- الإحاطة بالجدل الإسلامي لليهود والنصارى، وهو أمر يمكننا من الوقوف على ما يتمتع به العلماء المسلمون من اطلاع واسع ودقة معرفية بعقائد أهل الكتاب، ومن براعة منطقية في ردودهم الكتابية، وسعة عقلية في نقاشاتهم الجدالية، رغم اشتهار أغلبهم بالفقه وأصوله.
- التوسيع من أفق معرفتنا بالتراث الفكري والجدال العقدي الذي أنتجه المسلمون بالأندلس، والوقوف على أثر هذا التراث في تأسيس وإقامة صرح علم الملل والنحل أو علم مقارنة الأديان.
- الوقوف على أهم الإشكالات العلمية والمسائل العقدية التي كانت محل خلاف بين المسلمين والنصارى بالأندلس ودارت عليها مناظراتهم الدينية وجدالاتهم العقدية، مما يستوجب التنبيه إلى ضرورة الاعتناء بهذا النوع من المجادلات والمناظرات بهدف استخراج القواعد التي من شأنها أن تستثمر فيما يعرف اليوم بحوار الأديان أو حوار الحضارات.

---

[1] "الفكر الإسلامي في الرد على النصارى"، مرجع سابق، ص. 9.

- مقارنة تلك المسائل العقدية والإشكالات العلمية بمثيلاتها في المشرق؛ لمعرفة مدى تشابه أو اختلاف مضامين هذه القضايا المختلف فيها، بين "المدرسة المشرقية" و"المدرسة المغربية"، وكيفية معالجة علماء المدرستين لتلكم الاختلافات الجدلية والعقدية.

ويمكن أن نضيف إلى ما أوردناه هنا من المسائل التي تظهر فيها أهمية الاعتناء بدراسة الجدل الديني بالأندلس؛ بعضا مما سطره خالد السيوطي في كتابه "الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس"، من الجوانب الأخرى التي لا تقل أهمية عما ذكرناه، من قبيل أن هذه الدراسة تساعدنا على:

- الكشف عن مصادر انحراف العقيدة لدى اليهود والنصارى، وخطورة التقليد في العقائد إلى الحد الذي يجعل المقلد مجرد تابع لمن يقلده، ومحاك له في أقواله وأفعاله، حتى وإن خالفت أبسط أحكام التفكير العقلي السليم.
- معرفة الجدل الإسلامي لليهود والنصارى، يكشف عن طبيعة العقائد الإسلامية، وغير الإسلامية، ويدل على أن الكثير من عقائد أهل الكتاب لا يؤيدها البرهان(...). أما في الإسلام فالعقائد الإيمانية قائمة على العقل الصحيح والفطرة السلمية ودائما ما يطالب القرآن مخالفيه بالدليل على صدق دعواهم: ﴿**قُلْ هَاتوا بُرْهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صادِقين**﴾[1].
- دراسة هذا الجدل توضح مدى الحرية، التي أعطاها المسلمون للنصارى بالأندلس، حتى إنهم ألفوا في الطعن في الإسلام، وجادلوا المسلمين عقديا، بل افتروا على الإسلام بصورة غير لائقة.
- كما أن دراسة الجدل الإسلامي لليهود والنصارى في الأندلس، يكشف عن الأثر الحضاري، الذي تركه الأندلسيون في المشرق، ومدى إفادة العلماء المشارقة من جهود الأندلسيين في هذا المجال[2].

---

[1] سورة: البقرة، الآية: 111.

[2] عن كتاب: "الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس"، لخالد عبد الحليم السيوطي، مرجع سابق، ص. من 62 إلى 73، بتصرف.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

وغيرها من الجوانب التي ذكرها خالد السيوطي؛ أوصلها إلى سبعة عشر جانباً، كلها تصب في موضوع إبراز الأهمية التي تكتسيها دراسة الجدل الديني بين العلماء المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس.

فمن الأهمية بمكان إذن، أن يتم تتبع هذا الجدل الديني تاريخيا، وتفرد له دراسات خاصة، تسمح للباحثين بالوقوف على المعالم والمظاهر التي تميزه، وكذا بمعرفة عوامل قيامه وظروف نشأته.

ولابد من التنبيه هنا على الشح الموجود في المصادر المباشرة التي يمكن اعتمادها للتأريخ للفكر العقدي والجدل الديني بين المسلمين والنصارى بالأندلس -لقلتها وبقاء أغلبها مخطوطاً- مما يستوجب التماس "مادة" هذا الفكر من مصادر غير مباشرة؛ فقهية وأصولية وتاريخية، ومن كتب المناقب والطبقات، والتراجم، والأنساب، ومن تآليف آداب الرحلة ودواوين الشعر ومصنفات الآداب...

وقد استشعر أستاذُنا عبد المجيد الصغير قيمةَ تلك المصادر غير المباشرة، ونبه على أهميتها بالقول: "ولا أعتقد أن بإمكان الباحث اليوم التأريخ لمرحلة نشأة الفكر الفلسفي والكلامي بالغرب الإسلامي دون أن يقدر قيمة تلك المصادر غير المباشرة، التي لا علاقة لها من حيث القصد الأول بالفلسفة أو بالكلام، وذلك من قبيل كتابي **المدارك والغنية** للقاضي عياض؛ وكتابي **المحن وطبقات علماء إفريقيا** لأبي العرب التميمي؛ **ورياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقيا** لعبد الله المالكي؛ **وجامع بيان العلم** لابن عبد البر؛ وأزهار الرياض للمقري... وأمثالها من المصادر غير المباشرة الغنية مع ذلك بمعطيات ثمينة تخص رصد التحولات الفكرية والاتجاهات الكلامية الخاصة "[1].

ولئن كان عبد المجيد الصغير يتحدث هنا بالأساس على أهمية تلك المصادر غير المباشرة للتأريخ للفلسفة وعلم الكلام، بدافع التخصص، فإن هذا لا يمنع من أن تكون تلك الكتب أيضا، مصدرا أساسيا للتأريخ للفكر العقدي والجدل الديني بين المسلمين والنصارى بالأندلس، على

[1] كتاب "الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي"، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 2005، ص. 24.

اعتبار أن الجدل العقدي بين المسلمين وأهل الكتاب بصفة عامة لا يعدو أن يكون -خصوصا في بدايات نشأته- مبحثاً من مباحث علم الكلام الذي أسس لغرض الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وتلك مهمة لا ينفك عنها الجدل الديني والمناظرات العقدية للمسلمين مع أهل الكتاب أيضاً.

وقد نبه عبد الواحد ذنون طه، أيضا على أهمية تلك المصادر غير المباشرة، فيما نحن بصدد الحديث عنه هنا، في مقال له بعنوان:" كتب الفتاوى مصدرا للتاريخ الأندلسي"، مركزا على النوازل الواردة في كتاب "المعيار المعرب" للونشريسي، قائلا: "... ومن المظاهر الثقافية الأخرى التي تشير إليها نوازل **المعيار**، كثرة المناظرات والمحاورات التي كانت تتم بين الفقهاء في مختلف المدن الأندلسية وحتى مع مدن العدوة المغربية. بل إن الونشريسي قد أشار استنادا إلى كتاب **الرسائل والوسائل** المفقود لأبي علي الحسن بن رشيق (أصله من مدينة مرسية الأندلسية، وكان حيا في عام 674هـ/1275م)، إلى مناظرة بين هذا الأخير وقسيس ورد على مدينة مرسية بعد استيلاء النصارى عليها، وذلك حول معجزة القرآن الكريم. ويشير هذا النص بالذات إلى أن هذا القسيس، جاء إلى المدينة، ضمن وفد من الرهبان والقسس أرسلوا من قبل ملك النصارى للانقطاع للعبادة، ونظر العلوم، والاطلاع على علوم المسلمين وترجمتها. والحرص على مناظرة المسلمين. وكان هذا شأن النصارى في بقية المناطق التي سيطروا عليها من بلاد الأندلس، مثل قرطبة وغيرها، بل إنهم أنشأوا مدرسة للترجمة في مدينة طليطلة لنقل العلوم العربية إلى اللغة القشتالية أولا، ومن ثم إلى اللاتينية"[1].

هكذا إذن، نكون قد قدمنا فكرة موجزة عن بعض ملامح الجدال العقدي بين المسلمين والنصارى بالأندلس، ونظرةً سريعة لما يتميز به هذا التراث، ووقفنا على أهم ما يميزه من خصائص وما يمكن تسجيله عليه من ملاحظات؛ لعل أهمها ما ذكره الباحثون من كون هذا الجدال العقدي لم يتأثر بالصراعات السياسية، والصدامات الدامية التي شهدتها الأندلس -على الأقل في القرون الأولى إلى نهاية القرن التاسع الهجري، وهي الفترة التي تم تحديدها للحديث عنها في هذا البحث-؛ فموازاةً مع الصراع العسكري، استمر الصراع الفكري كخيار ثان أساسي، لتدبير الاختلافات العقدية بين المسلمين والنصارى في مخلف المدن الأندلسية.

---

[1] مقال منشور بـ"المجلة العربية للثقافة"، العدد السابع والعشرون، (مارس سبتمبر)، سنة 1994، ص. 109.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

وقد كان هذا الخيار الفكري؛ المتمثل في المحاورات الجدالية التي تقع بين العلماء المسلمين ونظرائهم النصارى، غالبا ما يتخذ شكل الردود الكتابية[1]، وفي أحيان أخرى يتم على شكل مناظرة بين عالمين؛ يشهدها جمعٌ من أتباع أديان المتناظرين، وقد يحدث الجمعُ بين الحالتين، فيتم التناظر الشفهي بين علماء الديانتين على مسائل معينة أولا، ثم يقوم أحد علماء الطرفين فيما بعد بإفراد مضمون تلك المناظرة بالتأليف.

[1] يقول عبد المجيد الشرفي: "كانت هذه المجادلات من الجانب الإسلامي تسمى في العادة "ردا على النصارى". وليس معنى ذلك أن هؤلاء قد هاجموا الإسلام بالضرورة، فانبرى المسلمون للرد عليهم، بل هو فن كلامي قد يندرج ضمن باب التوحيد في المؤلفات الكلامية عموماً، وقد تخصص له كتب أو رسائل مفردة"، الفكر الإسلامي...، مرجع سابق، ص. 22.

خاتمة

حاولَت فقراتُ العرض الكشف عن جوانب مهمة من جهود العلماء المسلمين بالأندلس في ميدان المناظرة الدينية والجدل العقدي، كوسيلة من وسائل تدبير الاختلاف العقدي بين المسلمين والمخالفين لهم في الدين والمعتقد، واقتصر البحث على النصارى دون غيرهم من أهل الملل الأخرى، ابتداءً من وقت دخول المسلمين الأندلس إلى القرن التاسع الهجري، ولنا أن نلخص أهم النتائج التي خلص إليها البحث في النقط الآتية:

- ألقى البحث الضوء على طريقة النصارى في هجومهم الفكري على الإسلام من جهة، وبين منهج العلماء المسلمين في التصدي لذلك الهجوم من جهة أخرى، كما أعطى فكرة عن أهم القضايا التي كان يدور حولها الجدل الديني بين المسلمين والنصارى بالأندلس.
- حاول البحث كشف اللثام عن دور علماء المسلمين بالأندلس في الدفاع عن الدين الإسلامي والرد على مطاعن علماء النصارى، كما بين هذا البحث أن علماء المسلمين - حتى من وقع منهم أسيرا بيد النصارى- كانت لهم الشجاعة والإيمان، ليس فقط في رد مطاعن النصارى على الدين الإسلامي، وفي الدفاع عن صحة معتقداته، بل أيضا في الطعن في دين النصارى، وكشف زيف معتقداتهم في التثليث والصلب والفداء..
- أكد البحث صحة الفرضية التي قال بها بعض الباحثين المهتمين بالموروث الجدالي بين المسلمين والنصارى، وبقضية الأسر بالأندلس، أمثال المستشرق الهولندي المعاصر فان كونينكزفلد، (Van KONINGSVLED) والتي أشرنا إليها في المقدمة، والمتعلقة بكون علماء النصارى يستعملون الأسرى المسلمين عندهم، وخصوصا العلماء منهم، للتدرب على الجدال مع المسلمين.
- بيَّن البحثُ أن الجدل الديني بين المسلمين والنصارى بالأندلس لم يتأثر كثيرا بالظروف السياسية والأجواء الحربية التي كانت سائدة بالأندلس.

وبعد، فإننا في ختام هذا البحث، نؤكد على ضرورة زيادة الاعتناء والعناية بالتراث الأندلسي، والبحث فيه عن مزيد من مؤلفات علماء المسلمين في الجدل العقدي والمناظرات الدينية التي جمعتهم بأهل الكتاب، إذ لا يزال الكثير من هذا التراث مخطوطاً أو في حكم المخطوط، يحتاج إلى من ينفض الغبار عليه. إضافة إلى وجوب الاهتمام بالتأريخ للجدل العقدي بالأندلس عامة، حتى تتضح معالمه أكثر، مع ايلاء عناية أكبر لمرحلة الموريسكيين والتركيز بوجه

أخص على آدابهم وتراثهم في هذا المجال، لأنه يلقي الضوء على هذه المرحلة المهمة والمهملة من تاريخ المسلمين بالأندلس قبل الطرد.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية ورش.
- الكتب العربية والأجنبية:
- الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 2005.
- الإسلام في الغرب (قرطبة عاصمة العالم والفكر)"، لروجيه غارودي، ترجمة : ذوقان قرقوط، جوهرة الشام، الطبعة الأولى، 1995.
- التراث العبري اليهودي في الغرب الإسلامي التسامح الحق "، لأحمد شحلان، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2006.
- الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس"، لخالد عبد الحليم السيوطي، دار قباء، القاهرة، 2001.
- جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى"، لمحمد بن إبراهيم بن صالح أبا الخليل، دار أصداء المجتمع، الطبعة الأولى، 1998.
- العلاقة بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف"، لرجب محمد عبد الحليم، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، بدون طبعة.
- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/العاشر"، عبد المجيد الشرفي، دار المدار الإسلامي، الطبعة الثانية، 2007.
- مقامع الصلبان"، لأحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق: عبد المجيد الشرفي، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية.
- المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية"، للويس كارديك (Louis Cardillac)، ترجمه إلى العربية: عبد الجليل التميمي، مركز للدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، 1989.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

- ورقات عن حضارة المرينيين"، لمحمد المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط (1996).
- Les sarrasins, L'islam dans l'imagination européenne au Moyen Age », Traduit de l'anglais par: Pierre Emmanuel Dauzat, AUBIER.
- Polémique byzantin contre l'Islam, Adel Théodore Khoury, 2ème tirage, Leiden, E.J. BRIL, 1972 .

- **المجلات والدوريات**

- التاريخ العربي"، العدد 15، 2000.
- مجلة "آفاق الثقافة والتراث"، العدد 70، سنة 2010.
- مجلة "البحث العلمي"، عدد: 13، السنة الخامسة، 1968.
- مجلة "الصورة"، العدد 3، 2001.
- مجلة "اللسان العربي"، العدد الرابع، 1966. 12.
- مجلة "فكر ونقد"، العدد الخامس، يناير 1998.
- مجلة الاجتهاد، العددان: السادس والعشرون والسابع والعشرون، السنة السابعة 1995.
- المجلة العربية للثقافة"، العدد السابع والعشرون، (مارس سبتمبر)، سنة 1994.
- مجلة دراسات أندلسية، العدد 30، سنة 2003.
- مجلة دفاتر الشمال، العدد: 5، 2002.
- مجلة عالم المعرفة، العدد 215،
- مجلة: "عالم المعرفة"، العدد 215، ص. 39، وما بعدها.
- Arabica, Tome : XVIII, fascicule: 1, février 1971.